

أضواء البيان

@ 390 @ ومنه قول زهير : وأجاءه غيره : إذا حمله على المجيء ، ومنه قول زهير : % (وجار سار معتمداً إلينا % أجاؤه المخافة والرجاء) % .
وقول حسان رضي الله عنه : وقول حسان رضي الله عنه : % (إذ شددنا شدة صادقة % فأجأناكم إلى سفح الجبل) % .
والمخاض : الطلق ، وهو وجع الولادة ، وسمي مخاضاً من المخض ، وهو الحركة الشديدة لشدة تحرك الجنين في بطنها إذا أراد الخروج . .
وقوله : { قَالَتِ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْ نَّسِيَّاتٍ }
تمنت أن تكون قد ماتت قبل ذلك ولم تكن شيئاً يذكر . فإذا عرفت معنى هاتين الآيتين فاعلم أنه هنا لم يبين كيفية حملها به ، ولم يبين هل هذا الذي تنحت عنهم من أجله ، وتمنت من أجله أن تكون ماتت قبل ذلك ، وكانت نسياً منسياً : وهو خوفها من أن يتهموها بالزنى ، وأنها جاءت بذلك الغلام من زنى وقعت فيه أو سلمت منه . ولكنه تعالى بين كل ذلك في غير هذا الموضع ، فأشار إلى أن كيفية حملها أنه نفخ فيها فوصل النفخ إلى فرجها فوقع الحمل بسبب ذلك ، كما قال : { وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْضَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا } وقال { وَالَّتِي أَحْضَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا } . والذي عليه الجمهور من العلماء : أن المراد بذلك النفخ نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت ، كما تدل لذلك قراءة الجمهور في قوله : { إِذْ نَسَمَاءُ آتَتْهُ رَسُولُ رَبِّكَ إِذْ هَبَّ لَكَ غُلَامًا زَكِيًّا } كما تقدم . ولا ينافي ذلك إسناد الله جل وعلا النفخ المذكور لنفسه في قوله { فَنَفَخْنَا فِيهِ } لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشئته ، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ . فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ ومن أجل كونه بإذنه ومشئته وأمر تعالى ، ولا يمكن أن يقع النفخ المذكور ولا وجود الحمل منه إلا منه إلا بمشيئته جل وعلا أسنده إلى نفسه والله تعالى أعلم .
وقول من قال : إن فرجها الذي نفخ فيه الملك هو جيب درعها ظاهر السقوط ، بل النفخ الواقع في جيب الدرع وصل إلى الفرج المعروف فوقع الحمل . .
وقد بين تعالى في مواضع آخر ، أن ذلك الذي خافت منه وهو قذفهم لها بالفاحشة قد وقعت فيه ، ولكن الله برأها ، وذلك كقوله عنهم : { قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدَدُ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا } يعنون الفاحشة ، وقوله عنهم ، { يَا أُخْتِ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ

